Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 12:2-3-4 (1977)

رسالة سعادة رياض الخطيب

سفير المملكة العربية السعودية لدى باكستان

بمناسبة الذكرى المئوية للعلامة اقبال

يحتفل الشعب الباكستاني المسلم الشقيق، في هذا الشهر (نوفمبر)، من العام الحالي، ١٩٧٧م، بالذكرى المئوية، للشاعر العبقري، والفيلسوف، العلامة الفذ، محمد اقبال . فقبل مائة عام، ولد لأسرة عريقة في مدينة (سيالكوت) بالبنجاب، طفل قدرله، فيما بعد، أن يصبح شاعر باكستان وفيلسوفها، بل شاعر الأمة الاسلامية، و بلبلها الغريد، لاكثر من ربع قرن من الزمان، انتهت بوفاته في مدينة ''لاهور،،، عام ١٩٣٨ . و من أحق من باكستان بالاحتفال بابنها البار، وبأحد مؤسسي فكرتها و بناتها . فقد بدأت فكرة ''وطن،، لمسلمي شبه القارة، أول مابدأت، حلما يداعب خيال الشاعر الفيلسوف ، وهو بعد تلميذ شاب، وما لبث ان انضم ذلك الشاعر الحالم، والفيلسوف المفكر الى قافلة العاملين لايجاد ذلك الوطن ''باكستان،،، فخدمه بفكره وقلبه وروحه، و كرس له جهوده ، و نذرله نفسه ،. و هكذا لم يكد اقبال يشرف على نهاية المطاف من عمره، حتى كان خيال الوطن الأمنية، يلوح واضح المعالم في الأفق . ولم يكن اقبال شاعر باكستان و فيلسوفها فحسب، وانما كان شاعر و فيلسوف الأمة الأسلامية عموما .

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

كان اقبال مجموعة أشخاص فى رجل، كان عالما روحيا كبيرا و فيلسوفا عظيما، و شاعرا عبقريا مبدعا، و مسلما قانتا مؤمنا، يصح فيه قول الشاعر العربي :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد .

لذلك فقد بموته رجل عظيم، وهب نفسه لخدمة وطنه باكستان خاصة، والمسلمين عامة . و كانت حياته جهادا متصلا في سبيل انهاض المسلمين، و دعوة لهم مخلصة للرجوع الى روح الاسلام الحقيقية، والتمسك بتعاليمه الرفيعة و مثله العليا، و قيمه الروحية السامية، ليعود لهم سابق اتحادهم، و سالف مجدهم وعزهم . فقد كان اقبال يرى أن سبب تأخر المسلمين راجع الى انحرافهم عن طريق الاسلام الصحيح، وان سبيلهم الوحيد الى الاتحاد والترقي والمجد، انما هي العودة الى تطبيق تعاليم الاسلام، قولا و فعلا وعقيدة . هذه كانت رسالته، كشاعر وكعالم وكفيلسوف و سياسي . وقد كرس لهذه الغاية جميع جهوده و شعره و فلسفته . و كان دائم الاستعداد للذب عن حياض الاسلام وتفنيد اراجيف المفترين عليه، وابرازه للاجانب فى صورته الصحيحة، و وجهه الحقيقى مجردا من زيف الأباطيل .

وقد ساح اقبال وجال فى مختلف الاقطار الاوروبية والاجنبية، ملقيا المحاضرات عن الاسلام، ذائدا دونه، مدافعا عن حياضه، داعيا الى انشاء باكستان، مبشرا بها . ولا يستطيع المرء ان يذكر باكستان، هذا الوطن الاسلامى العظيم، دون أن تطوف بذهنه صورة اقبال، ابن باكستان البار، واحد بناتها و مشيديها . فقد كان ركنا ركينا لهذه الدولة العزيزة، والوطن الاسلامى الغالي، ولم يبخل في سبيل انشاء باكستان باى ثمن مهما عز، من جهد أو مال أو تضحية . وقد

أثابه الله جل وعلا على جهاده، و كافاه على جهوده، فجعل ذلك الحلم الجميل الذى طالما سعى اليه، يراود مخليته، مترائيا له على الافق، و شيك التحقيق، فمات قرير العين، مرتاح الضمير . فبعد أقل من تسع سنوات من وفاته، اصبحت باكستان الحلم، دولة من اكبر الدول الاسلامية .

وعند ما كان يعالج سكرات الموت في داره بلاهور، عام ١٩٣٨، اجتمع حول سريره بعض تلاميذه والمحبين له يبكون، و يبتهلون الى المولى سبحانه و تعالى، بقلوب خاشعة أن يكشف عنه الغمة و يشفيه و يطيل بقاءه . فقال لهم اقبال معاتبا :

''إن كنتم صادقين فى رغبتكم، فاجعلوا ابتهالكم الى الله أن يمد فى عمر الرجل الذى يحتاجه الوطن اكثر منى، وهو القائد الأعظم، محمد على جناح،، . وهكذا — حتى في الرمق الأخير من حياته — كان اقبال يؤثر بلده على نفسه، مبرهنا على أن مثله العليا و قيمه الرفيعة التي كان يؤمن بها، لم تكن مجرد افكار وعاها قلبه فحسب، وانما كانت دستورا انتهجه و عاشه .

و خلاصة القول ان اقبال كان شاعرا عظيما، و فيلسوفا كبيرا، و سياسيا يشارالية بالبنان . وقد كرس حياته كلها، و جهوده جميعا، و نذر نفسه لخدمة باكستان و خدمة الاسلام والمسلمين، فوقف شعره و فكره و قلمه وادبه و فلسفته و سياسته على خدمة هذه العقيدة و دفعها الى الأمام .

فهو كشاعر، قد دعا المسلمين للعودة الى تعاليم الاسلام الصحيحة، والى الإتحاد والتعاون لتحسين اوضاعهم والسير قدما .

وهو كمفكر و فيلسوف، قال ان سر انحطاط المسلمين، هو انحرافهم عن تعاليم الاسلام الحقيقية و عدم تمسكهم بدينهم، وتفرقهم وتباعدهم . واكد انهم لن يعودوا الى مجدهم السابق ، وتبوء مركزهم الطليعي، ولعب دورهم القيادى، مالم يعودوا الى الجادة و ذلك بتمسكهم بدينهم الحنيف واتحادهم و تضامنهم .

و هو كسياسى، بذل كل مافي وسعه ليكون لمسلمي شبه القارة وطن خاص بهم . ولئن توفي قبل ان يرى جهوده تثمر، وأحلامه تتحقق، ببضع سنوات، فانه كان على ابواب الفجر الصادق، ففي خلال سنوات قلائل، تحققت أحلامه الثلاثة : تأسيس باكستان كوطن اسلامي، عودة المسلمين الى احياء دينهم والتمسك باهدابه، و بدء تعاونهم و تضامنهم، ببدء سياسة التضامن الاسلامي على يد الشهيد المرحوم، جلالة الملك فيصل بن عبدالعزيز طيب الله ثراه . و كان مؤتمر لاهور للقمة الاسلامية عام ١٩٧٤، البداية العملية و نقطة الانطلاق للتعاون الاسلامي فى سائر مناحى الحياة .

بقيت كلمة أخيرة . انني كعربي مسلم أحب اقبال، المسلم الذى أحب العرب و تغنى بهم . فعندما جاء الى اسبانيا، قال مخاطبا مدير الفندق الذى نزل فيه : ''أين أحفاد العرب في هذه البلاد ؟،، فاجابه المدير : ''أنا واحد منهم،، و جمع له وجوها من خيارهم فقال فى ذلك شعرا معناه : ''ان الحسن فى هذه الوجوه من سنا الحجاز . و هذا النسيم العليل الرخي والعبير الشذي من نفحات اليمن،، . و في اسبانيا نظم قصيدته الشهيرة عن ''قرطبة،، و ''مسجدها الجامع،، تغزلا بمدينة العرب والمسلمين في اسبانيا وهي تكاد تكون اروع شعره .

ولئن نظم اقبال شعره و كتب مؤلفاته، باللغتين الأوردية والفارسية، فانه كان عظيم الاعجاب، كثير المحبة للغة العربية، كثير التحدث عنها والتغزل بها . فقد قال رحمه الله : ''ان أعمالي ستخلد، و سترون ان كل معنى اطلقته في قصائدى، سوف تتناقله اللغات المختلفة، كلا عن الأخرى. و لكنني أريد أولا و قبل كل شئ، ان يترجم كلامي الى اللغة العربية، ليصل صوتي الى العرب، و ليطلع العالم الأسلامى على أسرار قلبي . آه لوكنت انظم القصائد فى اللغة العربية ، اذن لما كتبت الابها، لأن ذلك يمكننى من اسماع صوتى للعالم الاسلامى باسره،، . و كان آخر كتاب ألفه، و مات قبل أن يطبع، هو كتابه ''أرسغان حجاز،، أى (هدية الحجاز) . فلقد كان دائم الحنين الى الحجاز، و كان يتمنى ان يكون الحجاز مثواه . و لطالما ترنم بالحجاز في قصائده وأشعاره .

ولا جرم أن روحه اليوم، ترفرف راضية مطمئنة، بعد اذ تحققت امنيته بترجمة شعره الى اللغة العربية، فلقد كانت تلك امنية من اكبر امانيه. و بعد أن طبع الآن، ديوانه ''ارسغان حجاز،، مترجما الى اللغة العربية.

وانني كسعودى، من الحجاز، انما أفي ببعض الدين الذى له في عنقي، كمتغزل بالحجاز، اذ اشارك الآن في هذا الاحتفال بذكراه. رحمه الله، و جعل دار الخلد مثواه .

— — —